دلالات اللغة والتصوير الفنى عند العباس بن الأحنف
شاعر الغزل العذرى

دكتورة

فاطمة الزهراء عبد الغفار على موافى
كلية اليمامة – الرياض

تمهيد:

لعل المطالع لدواوين الشعراء العرب عبر عصور الأدب المختلفة يدرك ذلك التنوع الكبير فى أغراض الشعر المختلفة ، من مديح وهجاء ، ووصف ، وغزل ، وفخر ، وإن بقى لافتا للنظر أن نجد شاعراً يضع شرنقة حول نفسه ، هي شرنقة تتسم بالعفاف والبعد عن الفحُشِ المتفشى فى عصره ، ولعل هذا ما وسمه بالتميز والخصوصية فى شخصيته وشعره على حد سواء . عرف عن الشاعر العباس بن الأحنف [1] بأنه كان عف اللسان ، بعيدا عن السعي بشعره للتكسب ، أو الاعتماد على الهجاء بدافع البغض ، أو الفخر بنفسه إحساسا منه بعلوه على أقرانه ، وإنما كان شاعرا يتمتع بمصداقية الرؤية والإحساس ، تتوافق فى حياته صور الناس جميعا ، يتحرك ضمن ميزان عادل فى السلوك والأداء والرأي ، كان العباس بعيدا فى ذلك كله عما قد يسيء للآخرين ، أو ما قد يسيء لشخصه – كذلك – ولعل ديوانه الشعري كله أن يترجم هذه الصورة الإنسانية الشفافة لديه .

إن ديوان العباس – فى مجمله – يجسد صورة حية نابضة لأحاسيس إنسانية رفيعة وصادقة ، لغة وصورة وتعبيرا ، وهى – فى مجموعها – تتحرك فى إطار من الغزل والحب العفيف ، كما تغنى به الشعراء فى زمن العشاق ، من أمثال قيس وكثير وجميل ، وإن كنت أرى أن العباس ابن الأحنف نموذج فريد من الشعراء المتميزين فى هذا الحقل فى عصر الدولة العباسية – تحديدا – ؛ فقد كان على قدر كبير من الإبداع فى شعره ، شديد التأثير فى المتلقى ، حيث يخاطب الإحساس والشعور الانسانى النابض بالحب والعاطفة الصادقة ؛ فكان بهذا أقرب إلى قلوب متلقيه ، حيث بز الشعراء الآخرين فى كثير مما تضمنه شعره، لفظا وصياغة ومعاني وصورا .

فى هذا الإطار يقول أبو الفرج الاصفهانى فى معرض حديثه عن العباس بن الأحنف ، مشيرا إلى بعض من سمات أسلوبه وطبيعته :

" إنه شاعر ظريف غزل مطبوع ، له مذهب حسن ، ولمعانيه عذوبة ورونق ، لم يتجاوز الغزل إلى مديح أو هجاء " [2] .

ويقول عنه الجاحظ :

" لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاما وخاطرا ، ما قدر أن يكثر شعره فى مذهب واحد ، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ، ولا يتصرف ، وما نعلم شاعرا التزم فنا واحدا لزومه ، فأحسن فيه وأكثر " [3]

يعود أَصله العربي إلى بنى حنيفة ، الذين سكنوا خراسان، وكانت نشأته وحياته فى بغداد ، وقد عاش حياة ترف ونعمة وثراء ، ولم يعمد يوما للمديح بغرض الحصول على النوال من خليفة أو حاكم ، أو لتكسب – كما نوهنا بهذا من قبل – . خالط العباس عددا كبيرا من الشعراء ، كان بعضهم يعيش حياة فسوق ومجون ، أمثال أبى نواس ، لكنه لم يسر على منوالهم ، ولم يسلك دربهم ، برغم ما اتسمت به شخصيته من ظرف، وروح دعابة لم تخرج به عن إطار اللياقة واحترام الذات . يقول عنه المبرد ، مشيرا إلى هذا الجانب – تحديدا – :

" كان العباس من الظرفاء ، ولم يكن من الخلعاء ، وكان غزلا ولم يكن فاسقا ، وكان ظاهر النعمة ملوكى المذهب ، شديد الترف ، وذلك بين فى شعره .. وكان حلوا مقبولا ، غزير الفكر ، واسع الكلام ، كثير التصرف فى الغزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مدحا " [4]

غزل العباس

تمحور شعر العباس – إذن – حول محور واحد – فحسب – هو محور الغزل وهو واحد من أغراض الشعر ، التي تمس مشاعر إنسانية واحساسات تفيض عذوبة وشغفا وحنينا ، يبثها حبيب لحبيبه ، وتبقى مثل هذه المشاعر عند مبدع الشعر الغزلي عاملا فاعلا ومباشرا لتفجير الخلق الابداعى عنده سواء على مستوى اللغة أو العاطفة أو الأسلوب ، أو على مستوى الصورة الفنية الإنسانية النابضة لديه

يتحدث أحد الباحثين عن بعض سمات غزل العباس ، وقاعدة تصويره وتعبيره الشعري فى إطاره ، بقوله :

" لقد قصر العباس فنه على الحب والعشق صدا ووصلا ، وحنينا وأنينا ، ولوعة وشكوى ، ومكاتبة ولقاء ، ووصفا للحبيبة وولها بها ، وفرحاً بلقائها ، وبكاء على فراقها ، وألما لرحيلها ، وصف الشوق وطول الليل ، وامتناع النوم وطول الهجر غاص فى أعماق نفوس العاشقين والمحبين ، وجاء بالصور الشعرية العديدة الفنية فى مواقف العشق ، بحيث لم يكد يصل إلى معانيه شاعر آخر من شعراء الحب والجمال فى أدبنا العربي ، ثراء ووفرة وتنوعا وكثرة " (5)

لعل الباحث قد أوجز كثيرا من أوجه معالجات العباس فى شعره ، والمحاور التي تحرك فيها ، غزلا ، برؤية هي أقرب إلى شمولية التحليل ، أو لنقل حدد أمامنا منهجه فى الشعر الغزلي ، وقد كان العباس نفسه قد وضع لبنة هذا المنهج فى بيت من شعره ، يقرأ المتلقي من خلاله ملامح هذا المنهج وأسسه ، يقول العباس :

لحانى فى القريض فقلت ألهو وما منى الهجاء ولا المديح

يستند العباس فى غزلياته على أبعاد ثلاثة ، الأول منها هو عفة لسانه وتعبيراته فهو أبعد كثيرا عن استخدام ما من شأنه الإساءة ، أو خدش الحياء ، أو مس كرامة المحب ، وأما الثاني فهو سهولة اللغة والتعبيرات والتراكيب وبساطة التصوير الفني ومباشرته وعمقه لديه ، ولعل ذلك أن يكون من أهم ما يجب أن يستند إليه المبدع – أي مبدع – فى سياق مخاطبة مشاعر المتلقين واحساساتهم ، وتوليد طاقات التفاعل معهم ، والوصول إلى ردات الفعل والتجاوب والتأثير فيهم من أقرب الطرق وأشدها أثرا فى نفوسهم ومشاعرهم ، أما الثالث من الأبعاد فهو ذو شقين اولهما رمزية الغزل ودلالته عنده ، وثانيهما البعد الانسانى والنفسي فى هذا الغزل ، ولا يخفى أن الشقين يرتبطان بعضهما ببعض ارتباطا وثيقا ، أو لنقل إن أحدهما يوصل إلى الآخر ، وهو نتيجة حتمية وطبيعية له . ونقف فيما بعد على هذه الأبعاد تباعاً .

اللغة والصياغة فى سياق أسلوب التعبير العفيف

من خلال قراءتنا الفاحصة لشعر العباس ندرك ملامح البعد الأول بوضوح وجلاء فهو فى شعره الغزلي عفيف اللسان ، وذلك أساس مهم فى شعره ، فهو لم يتطرق الى معان فاحشة ، ولم يعمد إلى تجسيد المحبوبة فى صور أو عبارات يجسدها بلغة خادشة أو جارحة ، ولنقرأ بعض أبياته فى هذا الإطار ، إذ يقول :

أدارى الناس عمـا بى وأخفيـه فمـا يخفى

وأشتاق فلا يعـ لم إلا الله ما ألقى [6].

ومما يعزز هذا الجانب – أيضا – عنده ، أنه لم يكن ككثير من شعراء عصره ، ممن سعوا لبيوتات الأثرياء ، أو قصور الخلفاء سعيا لطلب عطاء

أو كسب . إن كثيرا من الشعراء درجوا على ذلك ، وتشكلت من كثير منهم – كما هو معروف ظاهرة الكدية وفئة المكدين من الشعراء ، الذين كانوا يتكسبون بالحيلة الشعرية ولم يكن العباس من هؤلاء .

وتذكر سيرة حياة العباس أنه دخل قصر الرشيد عن طريق الغزل ، ولم يكن ذلك بوسائل المدح والتكسب ، ولعل غزله كان طريقه لكسب دألة عظيمة عند الخليفة الرشيد ، وأصبح من المقربين عنده، وتذكر سيرة حياته بهذا الصدد – أيضا – أن الرشيد كان يصطحبه معه فى غزواته المختلفة .

يرتكز غزل العباس – كما سبق التنويه بذلك من قبل – على عفة اللسان والتعبير ، وفى هذا السياق ، نقرأ فى سيرة حياة الشاعر ، وطبيعة إبداعه الشعري أن هذا الشعر كان سبيله لكسب رضي الرشيد ، وتقديره له ، وفى هذا السياق تطالعنا كتب تاريخ الأدب على كيفية دخوله قصر الرشيد بداية ، ولعل فى طرافة الحكاية المروية بهذا الصدد ، ما يؤكد على ما نحن بصدد الحديث عنه ، مما يتعلق بالأبعاد اللغوية والتعبيرية والتصويرية التى يستند إليها العباس فى غزلياته .

يروى بعض مؤرخي الأدب أن واقعة جفاء قد حدثت بين الخليفة الرشيد وإحدى جوارية ، وهى ماردة أم المعتصم ، التي ترفعت عن التقرب للرشيد أو الاعتذار إليه ولم يكن موقف الرشيد مغايرا لموقف الجارية ، مما تحتم معه استدعاء الشاعر ليكتب للرشيد شعرا ، يصف فيه حالة العشق والهيام التي أصابها الفتور ، والتوتر فأخبر جعفر البرمكى شاعرنا العباس بن الأحنف بالقصة ، فانبرى قائلا :

"العاشقان كلاهما متجنب وكلاهما متعتب متغضب
صدت مغاضبة وصد مغاضبا وكلاهما مما يعالج متعب

راجع أحبتك الذين هجرتهم ان المتيم قلما يتجنب
إن التجنب إن تطاول منكما دب السلو له فعز المطلب [7]

الشيء الطريف فى هذا المقام ، أن شعر العباس هنا كان له كبير أثر فى نفوس من سمعه ، وبخاصة إبراهيم الموصلي ، موسيقى العباسي المعروف ، فقام بتلحين الشعر ، مما كان له أكبر الأثر فى نفس الرشيد حين سمعه ، فكان ذلك إيذانا بمصالحته جاريته وتقريبها منه ، وأمره بعطاء جزل لإبراهيم الموصلى ، وبعطاء مماثل للعباس ، لم يسع إليه .

اتسمت شخصيته فى ظل ما نشير إليه هنا من عفة لغته وعباراته وسلوكه بسمات كانت العامل المساعد ، لفتح أبواب الخلفاء له ، وكسبه لمودتهم واحترامهم فقد عرف عنه نبل خلقه ، وأناقة ملبسه ، ولباقته فى الحديث ، وظرف لسانه ومظهره ، وجمال خلقته ، إضافة إلى ما عرف عنه من حلاوة العشرة والحديث .

والطريف – فى هذا السياق – أن هذه الصفات لم تكن طريقه الممهد لقلوب الخلفاء – فحسب – بل كان ذلك سبيله الأيسر لكسب قلوب النساء المحبات الولهات العاشقات ؛ ذلك لرقة أشعاره التي تمس القلوب ، وتدغدغ المشاعر والأحاسيس ، وبخاصة فى إطار ما كانت توضع فيه من الألحان الرقيقة التي كان يبدعها إبراهيم الموصلي آنذاك .

أحد الباحثين يتحدث عن طبيعة شعر العباس من هذا المنظور بقوله :

" وشعر العباس يجمع معاني وقاموس لفظ الغزلين من الحجازيين وشعراء الغناء ، مازجا تلك المعاني والتعبيرات والصور بألفاظ وتعبيرات ومعاني العذريين من أمثال مجنون بنى عامر ، وقيس بن ذريح وجميل بثينة ، وابن الدمينة ومن إليهم ؛ إلا أنه عرض تلك المعاني فى معارض

من اللفظ أكثر ظرفا ورشاقة ، ومناسبة لعصره ، عصر الحضارة ، ويجفو غريب اللفظ وحوشيه"[8] .

لغته بين سهولة اللفظ والتراكيب وعميق الدلالة

انطلاقا من هذه السمات الإنسانية والفنية فى شعره ، اتسعت دائرة محبيه وعشاقه ، ولعل ما اتصف به شعره من بساطة القول ، وسهولة التعبير ، ورقة التصوير ، مع عمق فى دلالات عباراته ولغته ، أن يكون عاملا مهما لإحداث التأثير الكبير – المشار إليه – وبخاصة بفعل شمولية معانيه الشعرية ، وتعبيراته المطلقة ، التي يمكن أن يعبر بها عن مواقف مشابهة من الحب والعواطف الجياشة ، مهما اختلفت الأزمنة أو الأمكنة . يقول فى بعض شعره :

إلى من زين الله به فى عينى الدنيا
ومن أهدى لى العتب فأهديت له العتبى
إذا ما غضب العاشـ ق فالغاية أن يرضى
إلا من يرحم الظمآ ن ، يستسقى فلا يسقى [9]

جانب آخر تجدر الإشارة إليه فى هذا السياق ، وهو أن العباس فى غزلياته كان أقدر على الولوج إلى أعماق المحبين ،ورصد خفايا خلجات قلوبهم ، وعواطفهم ، ويبدو هذا الجانب محورا مهما من محاور شعره الغزلي بعامة ، ذلك من خلال سهولة لفظه ، ويسر تناول عباراته . ولعل هذا ما يميز كثيرا من شعره قياسا لأشعار غيره من المبدعين فى عصور الأدب المختلفة ، وبخاصة شعراء العصر العباسي أو الأموي – من قبل – من الغزليين . لنقرأ البيتين التاليين اللذان يشكلان وثيقة المصالحة وتجديد عاطفة الحب والوصال والوئام بين الرشيد وجاريته ، ونلحظ فيهما إلى أى

مدى وصل العباس فى إتقانه الشعري ودقته فى التعبير ، على بساطته ، لغة وتعبيرا وتصويرا ، من غير اعتماد على تعقيد أو غريب أو وحشي من القول :

لابد للعاشق من وقفة تكون بين الهجر والصرم
حتى إذا الهجر تمادى به راجع من يهوى على رغم

ولعل إدراك الرشيد لفحوى الرسالة العاطفية الرقيقة ، ذات الحس الإنساني ، وتعليقه عليها أن يؤكد ما نحن بصدده هنا ، من بساطة التعبير الشعري ، وعمق تأثيره فى نفس المتلقى ، يقول الرشيد – ضاحكا – تعليقاً على بيتى العباس، سابقي الذكر:

" والله ما رأيت شعراً أشبه بما نحن فيه من هذا ، والله لكأنى قصدت به . واستغرق ضاحكاً ، ثم قال : " أى والله أراجع على رغم " [10]

فى جانب آخر كان العباس أكثر إحساسا بأحوال العاشقين ، ويبدو أن هذه النقطة كانت فارقة فى شعره بعامة ، بل هى التى ساعدته على أن يعمد إلى اللفظ السهل ، ميسور التناول والفهم ، ذلك قناعة منه أنه يخاطب بشعره أكبر قاعدة من البشر ، استنادا إلى مدى تأثير اللفظة والعاطفية الرقيقة فى قلوب الناس جميعا ، مهما اختلفت أعمارهم أو مواقفهم أو اتجاهاتهم أو قناعاتهم ، فالمشاعر هي لغة جماهيرية – إذا صح التعبير – وكلما كان المبدع أكثر دراية بطبيعة من يخاطبهم ، كان أقدر على وضع اللغة فى سياقات مؤثرة ، تؤدى فيها دورها الفني والانسانى ، عبر مستوياتها وابنيتها المتعددة ، سواء من حيث صوت هذه اللغة وجرسها أو من حيث تكوينها وتصميم تراكيبها ، أو من حيث دلالتها واستخداماتها الأسلوبية .

إن العباس نجح – إلى حد كبير – فى توظيف هذه اللغة ، على بساطتها ، بعمق ودقة فى الانتقاء المتعلق باللفظ السهل البسيط ، من جانب ، و بالتركيب الفني والصياغة السهلة – أيضا – من جانب ثان .

على صعيد آخر متعلق ببساطة اللغة وسهولتها فى شعر العباس ، ما يمكن أن يشار إليه من أمور طريفة فى هذا السياق ، من ذلك أن هذه السهولة والبساطة فى شعره ، قد ولدت تأثيرا كبيرا عند فئة البسطاء من المحبين لشعره ، وبخاصة من العاشقات اللائي يخاطب مشاعرهن ، حيث كثر عددهن ، ولفت الأنظار بصدقه وعاطفته الجياشة ، مما دفع ببعض الباحثين إلى التنويه بهذا الجانب ، يقول أحدهم فى هذا الشأن :

" أما صاحباته اللائي قال فيهن شعراً ؛ فهن من الكثرة بمكان ، وباستقراء ديوان الشاعر استطعنا أن نعرف منهن نسرين ونرجس وذلفاء وضياء وسحراً ، ومن قد استأثرن بالقدر الأكبر والأرق من شعره وهما فوز وظلوم "[11]

لقد ضمن العباس كثيرا من قصائده أسماء عاشقاته تلك . يقول فى بعض أبيات له :

" أنني ودعت قلباً طائعاً بين سحر وضياء وخنث
يتنازعن الهوى عن ذى هوى آمنات عهده لاينتكث
وإذا سحر أتت زائرة كشفت رؤية سحر كل بث
وابنفسى من حبيب غير مملول على طول اللبث [12]

إن مصداقية الشاعر فى ظل سهولة لغته قد أدت دورها فى تحقيق هدف آخر ؟، ذلك المتعلق بإحداث التوافق بين الناس ، وعقد المصالحات بينهم ، ويرتبط هذا البعد الانسانى المهم بما يتم الحديث عنه – فيما بعد – المتعلق بالجانب النفسي والرؤية الإنسانية فى شعره .

إنه فى مجمل القول أحس أن احساساته ، مبدعا وإنسانا ، لا تجد تنفسها الحقيقي إلا فى عالم من الحب والعشق ، وقد عبر عن هذا المفهوم فى شعره ، ذلك الذى اتخذه قاعدة لحياته ، بقوله بتعبيره ، هو غاية فى البساطة والمباشرة الفنية البديعة :

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ولا خير فيمن لا يحب ويعشق

وتتسع تلك الدائرة ، لتتضمن دلالات أعمق وأشمل ، فى قوله :

صرت كأنى ذبالة نصبت تضيء للناس وهى تحترق (13)

رمزية الغزل ودلالته

" فوز ، الرمز الشمولي

يرتكز البعد الثالث فى شعره العباس بن الأحنف على شقين اثنين – كما سبقت الإشارة لذلك – الأول منهما متعلق برمزية ودلالته عند العباس فى غزلياته ، والثاني منهما هو البعد الانسانى والنفسي فى شعره الغزلي .

على صعيد الشق الأول – المشار إليه مسبقا – نجد أن العباس قد أبدع كثيرا فى شعره الغزلي ضمن أطر من الدلالات البسيطة والمباشرة ، وهو ما يمكننا أن نطلق عليه الرمز الكلى أو الشمولي المطلق ، وهذا يعنى أن تركيبة القصيدة ، بوصفها وحدة إنسانية وفنية قائمة بذاتها ، تبدو مشكلة أو راسمة لوحة عاطفية رمزية متكاملة ،ومنفردة ، من حيث المعنى والمستهدف العاطفي ، ومن ثم الإنساني فيها.

فى هذا الإطار ، يقف كثير من الدارسين والباحثين لحياة العباس وشعره ، على واحدة من شخصيات محبوباته ، بوصفها نموذجا دلاليا ، لشعر الحب والغزل عنده ، وقد دار كثير من شعره حولها ، وهى " فوز " التي أبدع فيها كثيرا من أبياته الغزلية المتوهجة ، الملونة بعاطفة صادقة

ملكت عليه حواسه ، ونبضت تلك الأبيات بحب هذه المحبوبة ، لتعطى دلالات الحب بشمولية ، وباتساع رقعته ، لتشمل كل من حوله .

إن قدرة الفنان أو الأديب المبدع على تعميق رؤيته الذاتية التى يعبر عنها فى إبداعه ، على منطقة محدودة زمانيا ومكانيا ، هى بمثابة الخطو الأول لشمولية ما يبدع هـ ، ليشمل أكبر قاعدة من الناس والأشياء ، من غير الخضوع لإسار الزمان والمكان ، وهذا ما أبدع فيه العباس ونجح – حسبما أرى – .

تلعب شخصية " فوز " – هنا – هذا الدور الرمزي الدلالي ، فهي إحدى محبوباته الكثيرات لكنها اكتسبت خصوصيتها ودلالتها من وحى تكرار اسمها ، واتكاء الشاعر على تضمين قصائد كثيرة عنده اسمها ، وصفاتها ، ولواعج نفسه فى حبها ، حتى لتبدو رمزا بشريا عاما ، أو لنقل إن العباس أبدع فى الانتقال بها إلى أنسنتها ، من حيث الطبيعة الإنسانية الشمولية وصفاتها الإنسانية العامة التي ضمنها شعره ، ذلك جانب ، كما تبدو أقرب إلى النموذج الذي يستهدف الشاعر تكراره واتخاذه صورة رمزية – أيضا – للحب السامي الذي يعبر عنه ، من غير ارتباط بعنصر بشرى ، وأعنى أن اسم هذه المحبوبة ، وأوصافها تذوب فى معنى دلالي ، يمكن أن ينطبق على أى اسم وأية شخصية ، مهما اختلفت السمات بين شخصية وأخرى .

" فوز " هي فى صورتها المباشرة الواقعية فتاة ملكت فؤاد الشاعر ، فنظم فيها غزلا قارب من ثلثى ديوانه ، فهي التي ألهمته الشعر صادق العاطفة ؛ فقد التقاها حين قدم بغداد فى بدايات حياته ، وهى حبه الحقيقي ، وهذا ما يؤكد ما نحن بصدده هنا ، من أنها مع مرور الزمن ، وتزاحم الأحداث ، وزخم المشاعر ، واختلاط الرؤى ، وتعدد القناعات ، وتراكم

الخبرات الحياتية التي عاشها الشاعر ، قد تحولت إلى نموذج انسانى شمولي السمات ، مطلق الهوية ، وبدت رامزة بشكل يشمل القصيدة – كل قصيدة عنده – ومن هنا أشرنا إلى أنها نموذج كلى ، من حيث استغراقه كل قصيدة على حده ، فى جانب ، واكتنافه شعر ابن الأحنف برمته ، فى جانب آخر ، إن سيرة حياة فوز تشير إلى أنها من بنى هاشم ، وقد ذكر الشاعر أنها كانت تسكن قصراً فى الرصافة ، تلك المنطقة التي كانت مقراً للخلفاء وعليه القوة ، وقد ورد ذكرها فى شعره مكرورا ، من ذلك قوله :

لما بدت فرأيتها فى صفرة كلف الفؤاد بكل شيء أصفر
وتشرفت من قصرها فلمحتها فلأ سألن عن النعيم الأكبر
وكأن نسوتها الكواعب حولها زهر الكواكب حول بدر أزهر
فوقفت ثم خشيت نظرة كاشح فرجعت مفجوعا بذاك المنظر
وسكنتم من بطن دجلة منظرا أنق المرابـع طيب المنتظر
وكأن دجلة مذ حللتم قربها تجرى لساكنها بماء الكوثر

فهو يؤكد فى أبياته السابقة ، أنها من علية القوم ، ثم نراه يعطى تصويرا فنيا بديعا ألقا فى بيت تال له ، حيث نتابع محبوبته بين جواريها ووصيفاتها ، فى دلال وخفر ، ورقة وعذوبة إذ يقول :

كأنها حين تمشى فى وصفائها تخطو على البيض أو خضر القوارير

لقد اهتم بعض الباحثين والدارسين بشخصية " فوز "على واقعيتها المباشرة ، وإن كنت أرى أن ما ذهب بعضهم إلى الحديث عنه من هذا المنظور ، هو ذاته قد حمل بعض سمات الرمز والدلالة التي تستهدف الحديث عنها حول الشخصية . أحد الباحثين يقول بهذا الصدد :

" لابد أن تكون سيدة من سيدات البلاط العباسي ، وهذا وحده يمكن أن يفسر سبب حيطة الشاعر فى كتمانه هواه ، واحاطة شخص الحبيبة بهذا الجو من الغموض " [14]

فى حين ذهبت باحثة الى تحديد أكثر صرامة لشخصية فوز ، بقولها : " إن فوزاً هى علية بنت المهدى أخت الخليفة هارون الرشيد "[15]

وبرغم ذلك ؛ فقد ذهب بعض النقاد والباحثين الى البعد الأقرب إلى رمزية الشخصية ودلالتها ، من ذلك ما أشار إليه باحث من تحرك الشخصية فى عالمي الحقيقة والخيال – على حد سواء – مما قد يضفى عليها سمة الرمز – فيما أرى – يقول أحد الباحثين فى هذا الشأن :

" وهكذا أحاط الغموض بشخصية فوز ، وأصبحت تتوزع بين الحقيقة والخيال ، وإن كنا نعتقد أنها شخصية واقعية ، أحاطت بها ملابسات اجتماعية معينة ، جعلت العباس بن الأحنف لا يجر ؤ على التصريح باسمها الحقيقي " [16]

وفى مساحة شعره كله ، يبدع العباس فى التعبير عن هذا المعنى الرمزي لمحبوبته لتسمو خارج حدود الإنسان الموصوف الفرد ، إلى حيز النموذج البشرى العام ، فى قالب من الرأفة المؤثرة ، لغة وصورة وعبارة وخيالا جميلا ، ولعل هذا ما دفع الدكتور شوقى ضيف لأن يقول فى شعر العباس فى " فوز " بصورة عامة :

" وقد مضى يصور ذلك لا فى قصيدة واحدة ، أو قصائد معدودة ، وإنما فى ديوان رائع ، تجد فيه النفوس غذاء روحيا ممتعا ، لأنه يرتفع عن الحس والمادة ارتفاع الشعر العذري الأموي ، بما يصف من حب لا يخمد أواره " [17].

لنقرأ نموذجا من شعر العباس ، ضمن المحور الذى نوه به الدكتور شوقى ضيف ، وأكده كثير من النقاد والدارسين ، ولعل رموز الألفاظ والصبور والمعاني التي أشرنا إليها من قبل،أن تكون واضحة فيه :

" يا من يسأل عن فوز وصورتها إن كنت لم ترها فانظر إلى القمر
كأنما كان فى الفردوس مسكنها صارت إلى الناس للآيات والعبر
لم يخلق الله فى الدنيا لها شبها إني لأحسبها ليست من البشر" [18].

ويتعمق الرمز ، بدلالاته الإنسانية – أيضا– متكئا على الصورة الحية ، النابضة بالحركة والحس الانسانى فى قوله :

هي الشمس مسكنها فى السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

إن اختفاء اسم المحبوبة هنا ، لم يكن ذا مسحة واقعية مباشرة – حسبما أرى – بل كان اختفاء رمزيا أيضا ، ولعل فكرة عدم إفصاح العباس عن اسم محبوبته ، هو ما يعطى دلالة إيحاء الاسم – كما أَشرنا إلى ذلك من قبل – ولكن من يطالع سيرة حياة الشاعر ، يرى إصراره على إخفاء اسم المحبوبة فى كثير من شعره ، وهو ما يؤك د فكرة الرمز التي نحن بصددها هنا ، يقول العباس فى بعض أبياته ، حول المحور ذاته :

" كتمت اسمها كتمان من صان عرضه وحاذر أن يغشو قبيح التسمع
فسميتها فوزا ولو بحت باسمها لسميت باسم هائل الذكر أشنع
فواحسرتى إن بحت لم تقض نهمتى ولم يغن عنى طول هذا التضرع
وهبت لها نفسى فضنت بوصلها فيالك من معط ومن متمنع
إليك بنفسى أنت أشكو بليتى وقد ذقت طعم الموت لولا تشجعى
هبى لى دمى لا تقتلينى بلا دم فما يستحل القتل أهل التورع "[19]

إذن ؛ فاسم المحبوبة " فوز " الوارد فى قصائد العباس ، قد لا يكون اسما على الحقيقة – فيما أرى – وقد أشار الشاعر نفسه فى أبياته السابقة الى هذا ، وبدا – من ثم – أنه اسم رمزى له دلالته الواضحة التى نوهنا ببعدها الانسانى من قبل .

المحور الانسانى والنفسي فى غزليات العباس

يدور الشق أو المحور الثاني من البعد الثالث من تلك الأبعاد التى يستند إليها العباس فى شعره حول المفاهيم الإنسانية السامية ، ذات العلاقة بمجالين اثنين رئيسين فى غزلياته ، أولهما هو المجال التعبير الفني المباشر فى شعره الغزلي، وثانيهما يتعلق بالمعالجة النفسية لهذا الشعر .

إن العباس بن الأحنف من شعراء الغزل القلائل فى عصور أدبنا العربي على امتداد خريطته الإبداعية ، الذين استطاعوا أن يقولبوا شعرهم الغزلى فى قوالب هي أقرب إلى تجسيد صور إنسانية شفافة ورقيقة ، من حيث المجالان المذكوران ، ومن يطالع شعر ابن الأحنف – فى الأغلب الأعم – يتفاعل معه تفاعلا إحساسا ونفسيا ، حيث تتوالد لدى المتلقي احساسات الرؤية الإنسانية لدى الشاعر ، من حيث تجربة الحب الحقيق ، الذى يعبر عنه فتسمو به إلى آفاق أرحب ، ويصبح المتلقي جزءا من التجربة الحية النابضة التي عاشها الشاعر نفسه ، ومن ثم يتحول المتلقي إلى عنصر مشارك وفاعل فى التجربة العاطفية وليس مجرد متفرج عليها، بمنظور خارجي منفصل عن التجربة .

ويمكننى حصر هذا المحور فى نقاط أساسية نشير إليها تباعا ، أول هذه النقاط ما يتعلق بقدرة العباس بن الأحنف على قراءة أعماق النفس البشرية ، ورصد بواطنها بدقة تعبير وبساطة لغة ، وبديع تصوير ، وقد

ترجم هذا كله فى أشعاره الغزلية بعامة ، وفى شعره فى شخصيته الرامزة " فوز " –سابقة الذكر – بشكل خاص .

يرتكز العباس فى الكشف عن بواطن النفس البشرية ، وقراءة أعماقها بحذق ووعى ، والغور فى خفايا هذه النفس ، العاشقة الولهة ، ورصد ملامح قلقها ، وشغفها بلقاء الحبيب ، وترقبه بأمل ينبض شوقاً صادقا ، على لغة مستقاة من قاموس لغوى يكتنفه إحساس مرهف ، ورؤية شعرية متحركة ، يلعب فيها عنصر التصوير الفني دوره المهم فى إيصال المعنى ودلالته للمتلقي من أقرب الطرق وأكثرها تأثيرا فى نفسه وقلبه . لنقرأ نموذجاً من شعره ، تبدو فيه الصورة الفنية العنصر الأساس فى تجسيد قدرة الشاعر على ربط الواقع الخارجي للغة ، بألفاظها وتراكيبها المباشرة والبسيطة ، فى جانب ، وبالانتقال – فى الآن نفسه – إلى عالم الإحساس الباطني الداخلي للشخصية العاشقة – فى جانب آخر . يقول الشاعر :

" اليوم طاب الهوى يا معشر الناس وألبست فوز حبي كل إلباس
قالت وإنسان ماء العين فى لجج يكاد ينطق عن كرب ووسواس
يطفو ويرسو غريقا ما تكفكفه كف فيا لك من طاف ومن راسي
عباس ليتك سربالى على جسدي أو ليتنى كنت سربالا لعباسى
أو ليته كان لي راحا وكنت له من ماء مزن فكنا الدهر فى كاس
أو ليتنا طائرا إلف بمهمهة نخلو جميعا ولا نأوى إلى الناس " (20)

فى هذا السياق ، يمكن أن نحدد بعض معالم هذا المحور من خلال قراءتنا لشعر بن الأحنف ، تلك التي تنحصر – حسبما أرى – فيما يلي :

–دقة تصويره لبواطن شخصيات العاشقين ، منطلقا من نفسه ، نموذجا لهؤلاء ، ومن ثم من خلال علاقته التوحيدية مع معشوقاته ، وبالتحديد مع معشوقته ، " فوز " ، ولعلنا قد لمسنا هذا الجانب فى أبياته السابقة بشكل واضح .

–الرؤية الإنسانية التي يغلف بها غزلياته ، فقارئ شعره الغزلي يحس معه – كما سبقت الإشارة إلى ذلك من قبل – بجذبه بانسيابية وارتياح لدخول التجربة الذاتية للشاعر،ليصبح عنصراً محركاً لبواعثها ، ومن ثم يكون مهيأ لتلقى الاستجابات والنتائج الاحساسية ، فى معية الشاعر نفسه ، وكأن المتلقي يعايشه ، دونما إحساس بإسار الزمان والمكان ، فتتبض التجربة وعناصر تكوينها الفني والانسانى بشكل واقعي آنى ، يقول فى بعض شعره ، الذي نحس بهذا الجانب جليا فيه :

قلت للتي وصفت محبتها للمستهام بذكرها الصب
ما قلت إلا الحق أعرفه أجد الدليل عليه من قلبي
قلبى وقلبك بدعة خلقا يتجاذبات بصادق الحب
يتهاديان هوى سيتركنا أحدوثة فى الشرق والغرب (21)

–القدرة الرائعة على عقد حوارات نابضة بالحب والحس الصافي الرائق بين العاشقين ، وأحسب أن عنصر الحوار ، بما له من صلة باللغة ، لفظا وتراكيب ، فى جانب ، وما له من صلة – أيضا – بالجانب النفسي للتعبير الغزلي ، فى جانب آخر ، أن يكون مجالاً ثراً ، غزير المعاني والدلالات ، عند الأحنف . يقول أحد الباحثين ، تنويها بهذا الجانب – تحديداً – :

– " يمتاز العباس بن الأحنف بالنفس الطويل فى الترجمة عن أحاسيس العشاق ، ولواعج العشق فى نفوس المعشوقات ، ووصف مواقف الحب ، وإجراء الحوار بين المحبين فى طلاقة وسلاسة ، تجمع بين حلاوة البداوة ، وطلاوة الحضر ؛ فهو ، والحال كذلك مزاج بين محاسن التقليد ، و طرائف التجديد " [22]

–فى هذا الإطار يقول فى بعض أبياته ، فى صياغة لغوية سهلة التناول ، عميقة التأثير فى نفس العاشقين ، ذلك فى قالب من المحاورة النابضة :

وحدثتنى ياسعد عنها فزدتنى جنونا من حديثك ياسعد

هواها هوى لم يعرف القلب غيره فليس له قبل وليس له بعد

وضمن حدود عذرية هذا الشعر ، وتميزه فى عصر غلبت عليه ماديات الحياة وسيطرة النظرة الذاتية ، يقول أحد الباحثين :

" كان شعره فى صورته العذرية كالفاكهة النادرة فى غير أوانها ، فى عصر الغزل الحسى المكشوف ، بل فى عصر الشذوذ والغزل بالغلمان . وكان غريباً أن يتردد هذا الصوت العفوف فى عصر استغرقته المادة " [23]

–من الجوانب المهمة التى نوه بها بعض الباحثين والدارسين لحياة العباس بن الأحنف ، وبما له صلة بشعره الغزلي الزاخر بمعاني الوله والهيام بالمحبوبة ؟، وهو ما كان يزخر به شعر كثيرين غيره من شعراء الغزل فى العصرين الأموي والعباسي ، ما له صلة بخصوصية شعر ابن الاحنف فى هذا الصدد ، وهو ما ميزه – كثيرا – عن أولئك جميعهم ، وهو ما يتصل بتركيز شاعرنا على تكريم المرأة وعدم ابتذالها والحط من قدرها ، أو معاملتها برؤية حسية أو مادية ، أو التركيز على مفاتنها أو صفاتها المحسوسة – فحسب – .

–إن ابن الأحنف أجاد – إلى حد بعيد – التعبير عن هذا الجانب ، متكأ على الجانب الفني فى تعبيره ، ولعل هذا له سببان اثنان رئيسان – حسبما أرى – كانا معا الدافع الاساسى له لإبداع شعره الغزلي ، الأول منهما له علاقة بتركيبته النفسية ، وهوية احساساته ومشاعره ، تجاه نفسه ، وتقولب هذا كله فى قوالب هي اقرب إلى التعامل الانسانى الرقيق مع نفسه والآخرين ، أو لنقل هى إفراز للمصالحة النفسية وهدوء النفس التى دفعته للإحساس ، حبا وارتياحا مع الآخرين من حوله ، وكان هذا طريقه الممهدة لفتح قنوات محبته لدى المعشوقات والمحبوبات ، ذلك جانب ، وأما الثاني فهو متعلق بواقع الحياة من حوله ، فكأن شعره جاء ردة فعل لواقع التردى الاجتماعي والخلقي الذي افرز كثرا من سلوكيات وممارسات مشينة ، لم يستطع قبولها أو التعامل معها ، ولا يخفى كم كان حجم الظواهر السيئة التي كانت نتاجا لذلك الواقع المأزوم والمتردى ، على الصعد الاجتماعية ، مما كان له كبير أثر فى البنية النفسية للناس ، وبخاصة من يملكون نفسا شفافة ، يحركها الإحساس ، وتنبض هي بعمق وصدق فى ابتعادها وعزوفها عن هذا الواقع .

لقد كان شعر ابن العباس الغزلي نوعا من التسامي ، وليس الهروب ، من واقع أصابه الخلل فى جوانب مهمة من بنيته الاجتماعية والسلوكية ، دفعت به إلى الارتقاء إلى سماء الشعر ، فوجد ضالته فى الغزل ، بوصفه بوابة التعامل بلغة المشاعر والأحاسيس مع الآخرين من حوله ، وهى – كما بدت له – أرقى لغة واسمى تعبير يواجه به واقعه المرفوض .

فى إطار حديثه عن طرائق ابن الاحنف فى تعامله مع المحبوبة ، من منطلق تقديرها واحترام كيانها الانسانى ، يقول أحد الباحثين ، مشيرا الى حرص الشاعر على ذلك :

" احترام المرأة وإجلال المحبوبة والبعد عن امتهانها ، بل مداومة الاحتفال بها ، وذلك أمر واضح عنده فى هذا البيت :

إنك لو أبصرتها مرة أجللتها أن تتمناها " [24]

لقد كان هذا واحدا من المحاور المهمة فى شعر ابن الأحنف ، وكان إبداعه فيه قائما على بساطة تعبيره ولغته ، التي عرف بها ، والتي أشرنا إليها غير مرة من قبل ، يقول فى أبيات له ، ضمن هذا السياق :

ألا ليت شعري عن مليكى أصابر إذا غبت عنه أم يرق ويجزع

تلفت خلفي حيث لم تبق حيلة وزودت عيني نظرة وهى تدمع

عنصر التصوير الفنى

يزخر شعر ابن الاحنف بمعان إنسانية سامية ، تدور – فى مجموعها – فى قوالب الشعر الغزلي ، ذلك الشعر الذي ضمنه أهدافا إنسانية يسعى من خلالها لتحقيق أهداف تسير حياته وعلاقاته مع الآخرين من حوله . لقد أشرنا – من قبل – إلى لعب شعره دور المصالحة وإحداث التوافق بين الأطراف ، بما فى ذلك من بعد إنساني ، كما ضمن شعره الكشف عن مكنون النفس البشرية ، وبخاصة عند المحبين والعشاق ، حيث أبدع فى التعبير عن لواعج هؤلاء المحبين ، والوقوف على آلمهم فى الحب ، وآمالهم فى المحبوب ، ورصد همومهم النفسية ، وغير هذا من المعاني الرقيقة الصادقة .

لقد عالج العباس بن الأحنف تلك المعاني فى نماذج متقنة من التصوير الفنى البديع ، وكان ذلك يشكل عنده عنصراً فارقاً ومهما فى شعره كله ، وقد تمحورت الصورة فى اطار محاور محددة ، تدور فى فلك الحب العذري غير المحسوس ، إن الصورة الفنية عنده ، هي صورة تستند

إلى ملمحين اثنين أساسيين ، أولهما الملمح البلاغي المباشر ، الذي تبنى الصورة ضمنه على قواعد التشبيه والاستعارة والكناية البلاغية المباشرة ، وثانيهما له علاقة بقناعاته الذاتية الخالصة ، التي تستمد الصورة من وحى شعره واحساساته ومشاعره الرقيقة ، التى تغوص فى الوصف النفسي الباطني ، ورصد ملامح شخصية المحبوبة من منطلقات خفية محسوسة ، ولكن المحب يدرك تداعياتها وانعكاساتها على تلك الشخصية ، مما يعمق الحب بمفهومه ودلالته الإنسانية المطلقة والشمولية ، التى تحدثنا عنها من قبل.

ضمن إطار التصوير الفني ، تقرأ كثيرا من أعار العباس من مثل قوله :

لو يقسم الله جزءاً من محاسنها فى الناس طراً لتم الحسن فى الناس

أبصرت شيئاً بمولاها فواعجبا لمن يراها ويبدو الشيب فى الرأس

وفى أبيات أخرى له يقول :

" أرسلت باللبان قد مضغته فوق تفاحة على ريحـان

وبمسواكها الذى اختاره اللـه لفيها من أطيب الأغصـان

فكأنى وجدت من الفـر دوس فاحت من ريح ذاك اللبان

وكأن السواك سواك فوز أخلص البيت فى الرياض الجنان " [25]

ومن صوره الجميلة البديعة فى محبوبته قوله :

" يا أيها السائل عن وصفها لقد وصفنا لوبلغناها

إنك لو أبصرتهـا مرة أجللتها أن تتمناها

لم ندر مالدنيا وما طيبها وحسنها حتى رأيناها

ومن صوره البديعة و، ومعانيه الرائعة ، وصفا ودلالة على تكريم المحبوبة ، قوله :

" تأملتها يوم الخميس وقد بدت تمشى كما يمشى النزيف من النفر

فسبحت تعظيما لها وجلالة وقد سفرت عن مشبه الشمس والقمر

و مالى من حبي لها غير أنني إذا ذكرت يرتاح قلبى ويستقر

إن الصور الغزلية عند ابن الاحنف – كما يجمع الباحثون والدارسون – هى صور سهلة المأخذ والتناول ، يحس بها المتلقي ، وبخاصة من يعيش تجربة عاطفية صادقة ، كما الشاعر . إن صور تتعدد فى شعره كله ، ولعل من الصعوبة على الناقد أو الدارس أن يفرق بينها فى الإجادة والإبداع ، وإن كنا نحاول أن نقرأ بعض سمات أسلوبه من خلال انتقائنا لبعض أبياته حول هذا المحور .

إن العباس يجيد معالجة عنصر التصوير فى قوالب قصصية ، فهو يضمن شعره الغزلي كثيرا من سمات القص أو الحكى ، فالمتلقي يتابع – فى كثير من شعره – حكاية أو أحدوثة تروى تجربة ما ، أو ترصد بعض ملامح نفسية وعلاقته بالمحبوبة ، أو تقف على حوارات نابضة حية بينه ومعشوقته ، أو الآخرين من حوله ، وغير ذلك ، مما يقدم فيه الشاعر لوحات تصويرية قصصية نفسية مباشرة .

من أبياته التي تترجم هذه الأبعاد قوله :

يا من يسائل عن فوز وصورتها إن كنت لم ترها فانظر إلى القمر

كأنما كان فى الفردوس مسكنها صارت الى الناس للآيات والعبر

لم يخلق الله فى الدنيا لها شبها إني لأحسبها ليست من البشر [26]

ومن صوره البديعة التي تركت فى قالب قصصي رقيق ، ما ذكره الدكتور مصطفى الشكعة ، معلقا عليه ، بقوله :

" وقوله بتشبيه آخر رائق المعنى ، لطيف أسباب الصوغ ، متلفع بالحس الحضاري :

ذكرتك بالتفاح لما شممته وبالراح لما قابلت أوجه الشرب

تذكرت بالتفاح منك سوالفا وبالراح طعما من مقبلك العذب [27]

وفى وصف المحبوبة بالعفة والنقاء والحسن والطهر ، يقول فى محبوبته ظلوم :

"نظر العيون إلى ظلوم نعيم إن السرور يقيم حيث تقيم
وأرى النساء يلمننى فى أمرها أبغض إلى ممن أراه يلوم
ماقومتك ملوك أرض قيمة إلا ارتفعت وقصر التقويم
وجه يكل الطرف عنه إذا بدا هو بالعفاف وبالتقى مرسوم
يحسدن وجهك ياظلوم إذا بدا هيهات! مالك فى الجمال قسيم
وغبطت نفسي إذ رأيتك مرة من لايراك فإنه محروم [28]

خلاصة

لعل من يطالع شعر العباس بن الاحنف يدرك أنه أفنى حياته كلها محبا عاشقا ولها ، يسمو بشعره عن واقع مأزوم صاخب ، تعددت فيه أشكال الممارسات والسلوكيات غير المحببة ، برغم ما كان فيه – لهذا من انعكاس على الواقع الاجتماعي – بشكل خاص – من تأثيرات الجانبين ، سواء أكان سلبا أم إيجاباً .

ومهما يكن من أمر ؛ فقد قدم العباس حياته – نفسها – قربانا على مذبح حبه وعشقه لمحبوبته ، التي بدت – كما سبقت الإشارة إلى ذلك – نموذجا إنسانيا واحدا ، برغم تعدد أسماء المحبوبات ، لكنه قدمهن فى قالب رمزي دلالي ، وبدا هذا – فى حد ذاته – مجالا لخلاف الرأي عند العقاد والدارسين .

يؤكد بعض الدارسين أن أسماء محبوبات الشاعر كانت أسماء وهمية ، أو لنقل رمزية للنموذج الذى تحدثنا عنه مسبقا ، ولعل تكرار الصور والتعبيرات ، بدلالاتها ، بين فينة وأخرى ، ومع محبوبة وأخرى ، هو ما أراه مؤيدا لمثل هذا الرأي ، لنقرأ نموذجا مما قاله فى محبوبته "ظلوم " وهو شبيه – إلى حد كبير – بما قاله من قبل فى محبوبته " فوز " ، سواء أكان من حيث العبارة وأسلوب التعبير ، أم من حيث الصفات الواردة :

متى – ليت شعري نلتقي ؟وإلى متى تؤدى رسالتي إليك الأنامل ؟
وأسكت كي يخفى الذي بي من الهوى فتشكو إلى الناس العظام النواحل
وأكتم جهدي ما أجن من الهوى فتنشر ما أخفى الدموع الهوامل [29]

ولم يستطع الشاعر أن يبرح معبد الحب الذي عاش متمسكا فى رحابه ، حتى فى لحظات موته ، وقد رويت قصص عن تلك اللحظات ، نقرأ من خلالها مدى ذوبان الشاعر عشقا وهياما حتى رمق حياته الأخير

يقول الاصمعى فى هذا الشأن ، مصورا لحظات موته الرومانسية ، عبرت عنها أِعار بن الاحنف ، بلغة رقيقة مؤثرة وبصورة بديعة ، تولد معادلات موضوعية ، من خلال إحداث التفاعل – بل التلاحم – بين الشاعر والطبيعة أو الكائنات من حوله ، وبحس شاعري أخاذ وبدلالات إنسانية رمزية عميقة ، تشكل – فى مجموعها – سمات الشعر عنده ، وأهم محاوره ، وأبعاده على الصعد الفنية والنفسية والدلالية – التي سبق الحديث عنها تفصيلا فى ثنايا البحث – فى إطار لم يفقد الحس الحضاري المساير لعصره وما فيه ، وليس بعيدا – كذلك – عن شمولية الرموز ومطلقاتها ، بوصف الشخصيات التي تناولها فى شعره ، وأسماء معشوقاته نماذج بشرية بالمقام الأول ، غير بعيد عن الالتزام بالبعد الديني قناعة

وسلوكا ، فيما لم يقف عنده الباحثون كثيرا ، على الرغم من توافق الجانبين معا ، فى صياغة التعبير والإحساس ، والرؤية ، والأداء، والهدف ، وأعنى بعدى الغزل وشعر الحب العذري النقي العفيف ، والإيمان والتقوى . وأورد فى خاتمة هذا البحث بعضا مما له صلة بكل منها ، على صعيد لحظة وفاته ، يقول الاصمعى :

" بينما أنا ذات يوم قاعد فى مجلس بالبصرة ؛ فإذا بغلام أحسن الناس وجهاً وثوباً ، واقف على رأسي ، فقال : إن مولاي يريد أن يوصى إليك ، فقمت معه ، فأخذ بيدي حتى أخرجني إلى الصحراء ؛ فإذا أنا بالعباس بن الأحنف ملقى على فراشه ، وإذا هو يجود بنفسه وهو يقول :

يا بعيد الدار عن وطنه مفردا يبكى على شجنه
كلما شد النجاء بـه دارت الاسقام فى بدنه

ثم أغمى عليه ؛ فانتبه على صوت طائر على شجرة ، وهو يقول :

ولقد زاد الفؤاد شجى هاتف يبكى على فننه
شاقه ماشاقنى فبكى كلنا يبكى على سكنه

ثم أغمى عليه ؛ فظننتها مثل الأولى ، فحركته ؛ فإذا هو ميت "[30]

وعلى صعيد ارتباطه بالبعد الديني ، نقرأ فى شعره التزامه بما ورد فى القرآن ، مستشهدا به فى بعض قصائده ، يقول فى بيت له:

أما والذي ناجى من الطور عبده وانزل فرقانا ، وأوحى إلى النحل

وفى بيت آخر له يقول :

ألان لداود الحديد بقدرة عليك على تيسير قلبك قادر

وفى شعر آخر له يقول :

إني لأحسب والأقدار غالبة أنى وإياك مثل الروح والجسد

حتى سعت يا فوز ساعية مشهورة عرفت بالنفث فى العقد

ولعل ما نوه به ابن المعتز وصاحب الأغاني ، حول مكانة الشاعر وقدراته ، وقيمته الفنية ان يكون موجزا ملامح الرجل ومبرزا هويته فى خارطة موروثنا الشعري التليد .

يقول ابن المعتز :

" كان شاعراً ظريفا مطبوعاً ، وكان على ستر وعفة ، وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق ، وفضل من نفسه ، وكان جوادا لا يبقى المال فى يديه ، ولا يحبس ما يملك "[31]

ويقول الاصبهانى :

" كان – والله – إذا تكلم لم يحب سامعه أن يسكت ، وكان فصيحاً جميلاً ظريف اللسان ، لو شئت أن تقول إن كلامه كله شعر ، لقلت " [32]